الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541 وأثرها على توازن القوى في غرب المتوسط

علي العبيدي*

احتدم الصراع المسلح بين الدولة العثمانية وال هابسبرك، منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وغطى هذا الصراع مساحات واسعة من أوربا الوسطى وسواحل البحر الأبيض المتوسط وجزره. وفيما يخص منطقة البحر المتوسط، فقد شهدت صراعا بحرياً مسلحاً تأرجحت الكفة فيه بينهما. فعلى سبيل المثال، تمكن الإمبراطور شارل الخامس من احتلال تونس في عام 1535، وكانت محاولة جرئيه في تهديد الوجود العثماني، المتنامي، في منطقة المتوسط. وكان لابد لهذا الصراع أن يتطور ليأخذ أبعاد إستراتيجية كبيرة في المنطقة، لاسيما وان الضرورة السياسية كانت تلزم الطرفين على العمل من اجل فرض هيمنتهما على هذا المسطح المائي المهم(1).

كان طبيعيا، أن يتطور هذا الصراع ليأخذ حيزا كبيرا في إطار إستراتيجية الحرب بين الطرفين. ومن هذا المنطلق، أدرك السلطان سليمان القانوني(1520- 1566) ضرورة توسيع نطاق العمليات العسكرية في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، إذ كلف خير الدين بربروس، الذي تولى قيادة البحرية العثمانية(2)، للقيام بهذه المهمة(3). وقد ساندت فرنسا، التي ارتبطت مصالحها بالتحالف مع الدولة العثمانية ضد شارل الخامس، التوجه العثماني الجديد في المنطقة، نظرا لما لهذه السيطرة من تأثير كبير في تغيير موازين القوى لصراعه مع الإمبراطور شارل الخامس(4).

وبناء عليه، لم تكن فكرة إرسال حملة عسكرية اسبانية لاحتلال مدينة الجزائر، واتخاذها قاعدة للانطلاق نحو بقية موانئ المغرب الأوسط(الجزائر)، تتبلور لولا الاحتلال الذي حدث في توازن القوى في منطقة البحر المتوسط أواخر العقد الرابع من القرن السادس عشر. ففي عام 1538 تمكن الأسطول العثماني، بقيادة خير الدين بربروس، من الانتصار على أساطيل التحالف المقدس في معركة بريفيزا(بروزة)(5)، إلى جانب خضوع البندقية للعثمانيين، والتي كانت تشكل الخط الدفاعي الأول في وجه الزحف العثماني في منطقة وسط وغرب المتوسط(6).

لقد أجبرت جمهورية البندقية، التي كانت أكثر الدولة ضررا من الحرب، في العشرين من نوفمبر 1540 على توقيع اتفاق مع العثمانيين، وافقت بموجبه على دفع ثلاثمائة ألف دوكة تعويضاً عن أضرار الحرب، كما تخلت عن كل الجزر التي أنتزعها منها خير الدين بربروس في المورة، واعترفت بجميع فتوحاته البحرية في بحر إيجة، مقابل موافقة العثمانيين على استمرار حكمها في كريت وقبرص، فضلا عن استعادة امتيازاتها التجارية(7). ومن خلال ما سبق، نستنتج إن اتفاقية السلام تلك، كانت بمثابة كارثة أخرى للبنادقة، ساهمت فيما بعد بتلاشي مكانتها كقوة مؤثرة في حوض المتوسط. فباستثناء كورفو وزانتة لم يبق بأيديهم سوى قبرص وكريت وبعض الحصون المعزولة على امتداد ساحلي ألبانيا ودلماشيا. وخلال أربعين سنة كانت

* أستاذ محاضر (أ)، قسم التاريخ، جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف

البندقية قد تلاشت تقريبا. ومنذ سنة 1540 فصاعدا بدأ اقتصاد البندقية يعتمد أكثر من أي وقت آخر على تجارتها مع الدولة العثمانية. وعلى الرغم من توطد السلام بين البندقية والدولة العثمانية لمدة تقرب من ثلاثين سنة أخرى، وإن البندقية استعادت عافيتها الاقتصادية، إلا إن هيبتها لم تعد كما كانت[8].

بعد هذه النتيجة أخذ المدّ العثماني يجتاح المناطق الممتدة على طول الساحل الشمالي للبحر المتوسط، حتى وصل إلى أشبيلية على حدود المحيط الأطلسي، وبات من واضحاً إن التهديد العثماني سيجتاح البحر المتوسط برمته بعد القضاء على قوة البندقية، وبات العالم المسيحي في حالة دفاع أكثر من أي وقت مضى، وكان على شارل الخامس أن يتخذ الاستعدادات الدفاعية لمواجهة هذه التطورات[9].

وبناءا على هذه المتغيرات، شهدت إستراتيجية الدفاع البحرية الأوربية، والتي تمثلها اسبانيا، تغييراً جوهرياً. وقامت خطة مواجهة التهديد العثماني على ضرورة تعزيز المواقع الإستراتيجية في جزيرة مالطا، حيث مقر فرسان القديس يوحنا. وتنظيم الدفاعات وتعزيز الحصون في السواحل الجنوبية من شبة الجزيرة الإيطالية، ولاسيما في نابولي وصقلية. فضلا عن استمرار إسبانيا بالدفاع عن سواحلها الشرقية عن طريق تنظيم دوريات بحرية تنطلق من قاعدة بلنسية البحرية[10].

ومن ذلك ندرك إن خطة الدفاع الإسبانية كانت تقضي بإبقاء العثمانيين في الأجزاء الشرقية من البحر المتوسط، وإن المنطقة الممتدة من المعبر المائي الممتد من صقلية باتجاه تونس كانت تمثل حدا بحريا إستراتيجيا لإمبراطورية آل هابسبرك، وخطاً أحمر لايُسمح للعثمانيين بتجاوزه. وتعزيزا لهذه الإستراتيجية، فكر الإمبراطور بتوجيه ضربة بحرية للعثمانيين تصرف أنظارهم عن التفكير بالمزيد من التوسع غربا. وتقرر أن تكون مدينة الجزائر هدفا لهذه الضربة.

بدا الإمبراطور شارل الخامس الإعداد للحملة. ولكن الملاحظ، أن هذه الحملة لم تحظَ بالتأييد اللازم من جانب الفاتيكان، إذ طلب البابا بولس الثالث(1534–1549) من الإمبراطور بالعدول عن شنّ حملته هذه. وكتب إليه قائلا:"انك سترتكب خطأ فادحا إذا ما خرجت غازيا لأفريقيا في نوفمبر... فأنتظر الربيع"[11]. وشاطره الرأي القائد البحري أندريا دوريا [12]. ولم تجدي طلبات أخيه الملك فرديناند الأول(1526–1564) بخصوص أن الخطر العثماني محدقٌ، أكثر من أي وقت مضى، ببلاد المجر وفيينا. لكن كلامه لم يُجدِ نفعا، فقد كان شارل مصمما على شنّ الحملة[13].

في نهاية شهر اوت 1541 أبحر شارل الخامس باتجاه مايوركا، حيث أحتشد كامل أسطوله المؤلف من: مائتا سفينة محمّلة بالجنود من الأراضي الألمانية والإيطالي، ومائة وخمسون سفينة أخرى محمّلة بجنود أسبان من صقلية ونابولي[14]، ومائتا سفينة قادمة من إسبانيا تحمل المدافع والعتاد والمعدات[15]، ونحو 24 ألف رجل ما بين مشاة وفرسان[16]، كما شارك فرسان القديس يوحنا في الحملة وبلغ تعدادهم 140 فارسا و400 مقاتل من خيرة قواتهم العسكرية[17]. بالإجمال، فقد بلغ قوام الحملة نحو خمسمائة سفينة تحمل على متنها نحو أربعة وعشرين ألف جندي وإثني عشر ألف بحّار[18]. وكانت قيادة الأسطول البحري لأندريا دوريا، بينما تولى دوق ألبا قيادة القوات البريّة. أما مدينة الجزائر فلم يكن فيها سوى ستمائة جندي تركي والفي فارس عربي متطوع بقيادة حسن آغا الذي بقي يدافع عن المدينة بدلا من خير الدين الذي كان في العاصمة العثمانية[19].

إزاء اختلال توازن القوة بين الطرفين، كان من المفترض أن تكون حملة الإمبراطور شارل الخامس''نزهة''، أن صح التعبير، ولكنها تحولت إلى كارثة كبرى هزّت العالم المسيحي. وتظهر ثقة شارل الخامس من سهولة تحقيق الهدف من وراء الحملة، تلك الرسالة التي بعث بها إلى حسن باي يوم انطلاق الحملة، يقول فيها:" إن القوة التي تراها اليوم ليس أنت فحسب، بل إن سيدك الكبير[20] لايقدر على صدها. فإذا كانت لك عينان مفتوحتان وتملك ذرة من العقل، الق سلاحك واربط راسك بمنديل، واتني بمفاتيح قلعة الجزائر. وإذا قدمت علي وقبلت الأرض بين يدي سوف أعفو عنك. فانا ملك اسبانيا ونابولي وصقلية وهولندا وبلجيكا وأمريكا، وإمبراطور ألمانيا. إن أباك وسيدك بربروس فر فزعا مني بتونس لا يلوي على شي. فحذار إن تفقد عقلك وتشهر السلاح في وجهي، لأنك إن فعلت ذلك فإنني أقسم بعيسى بأني سوف أمزقك، وأعلق أشلاءك على أبراج الجزائر" [21]. بالمقابل رد عليه حسن باي، بالقول:"إن قلعة الجزائر ليست ملكا لي حتى أسلمها لك. ولن أمكنك من بلد مولانا السلطان سليمان لأبوء بخسارة الدنيا والآخرة. وليكن معلوما لديك بان قلبي لايحمل ذرة خوف منك. فأنت قد أمضيت حياتك في تلقي هزائم شنيعة أمام والدي خير الدين باشا، وأنا على يقين بان الله تعالى سوف ينصرني عليك"[22]. كما قام بأخذ الاستعدادات اللازمة لمواجهة الحملة الاسبانية بقيادة شارل الخامس حينما فتح مخازن السلاح ووزعه على الأهالي، وأمر بنصب المدافع على المترس الموالي للمدينة بكدية الصابون[23].

انطلقت الحملة بقيادة شارل الخامس من مرسى ماهون في الثامن عشر من اكتوبر1541[24]، ووصلت قبالة مدينة الجزائر في العشرين من الشهر ذاته، قامت باستعراض قوة أمام ميناء الجزائر بقصد إرعاب وهز معنويات سكانها وإضعاف رغبتهم بالمقاومة[25]. ويصف صاحب كتاب(غزوات عروج وخير الدين) ضخامة حملة شارل الخامس، بالقول:" وخيل لأهل الجزائر حين طلعت هذه العمارة عليهم أنها جبل يسير في البحر"[26]. ولكن السفن فشلت في إنزال القوات البرية خلال الفترة مابين 20-23 أكتوبر بسبب هياج البحر نتيجة عاصفة بحرية، مما اضطرها للالتجاء إلى راس ماتيفو[27]. واعتقد أن هذا التأخر في نزول القوات البرية والالتجاء إلى مكان بعيد عن مدينة الجزائر، بعض الشي، أعطى الوقت الكافي، نوعا ما، لحسن باي لتدارك الموقف والقيام بعض الاستعداد لمواجهة الخطر المحدق بالمدينة.

بدأ إنزال قوات الحملة بين 23- 25 أكتوبر على الضفة اليسرى لمصب وادي الحراش، ويعتبر هذا المكان من أولى الأخطاء التي وقعت بها قيادة الحملة، والتي ستظهر انعكاساتها كبيرة فيما بعد[28]. فعلى الرغم من وجود شاطئ بعيد بعض الشئ شرقي المدينة، فإنه كان سيوفر حماية كافية ضد الرياح والأمواج. وبدلا من ذلك، فإنهم اختاروا مكانا أقرب إلى المدينة، لكنه كان عُرضة لعواصف البحر. وبالفعل، فقد هبت منذ البداية عاصفة أرغمتهم على تأخير النزول إلى البر. وعند نزولهم تعرقل زحفهم بسبب وجود الروابي والمرتفعات التي لم يأخذوها بنظر الاعتبار.

وفي الخامس والعشرين من أكتوبر اكتمل إنزال القوات البرية، وتحركت نحو مدينة الجزائر بثلاث محاور[29]. وبالشكل الأتي[30]:

1. القوات الاسبانية تتحرك من جهة المناطق المرتفعة.
2. القوات الألمانية تتحرك من جهة السهل.
3. القوات الايطالية تتحرك من جهة الساحل.

و لم تتمكن قوات الحملة من تحقيق أي تقدم يذكر نتيجة مقاومة حامية المدينة بقيادة حسن باي، والتي أذهلت شارل الخامس على للشجاعة التي اتصف بها المدافعين عن المدينة. مما جعله يصدر الأوامر بإيقاف القتال لأخذ قسطا من الراحة. على أن يتواصل الهجوم في اليوم الموالي[31].

أعطى توقف القتال بين الطرفين فرصة مواتية لان يتخذ حسن باي بعض التدابير السريعة لمواجهة الخطر المحيط به، فقرر إرسال جواسيس تمكنوا من التغلغل بين صفوف القوات الغازية وجمع المعلومات عن أحوالها والظروف التي تحيط بها. وتبين من خلال المعلومات التي نقلها الجواسيس أهمية اخذ زمام المبادرة من جانبه ومباغتة العدو قبل حلول صباح اليوم الموالي. وبالفعل وضع حسن باي خطة تقوم على مباغتة العدو من خلف مواقعه القتالية[32]. فشن هجوما مباغتا على راس قوة ضمت 600 انكشاري و1000 فارس محلي، وتمكنت من إحداث حالة أرباك وفوضى داخل صفوف قوات الحملة[33]. وفي ذات الوقت، هطلت أمطار غزيرة، سهلت من عملية الهجوم الذي قام به حسن باي، وتمكن من قتل أعداد كبيرة[34] من قوات شارل الخامس[35].

لقد كان ساهمت تقلبات الطقس في عرقلة تقدم قوات الحملة نحو مدينة الجزائر، فالأمطار كان لها تأثير كبير في خلط الأوراق على المهاجمين، لاسيما وأنها عاقت وصول الإمدادات والمؤن للقوات البرية من السفن الراسية قبالة الساحل، والتي بقيت لمدة ثلاث أيام من دون أكل ومياه مما اثر على معنويات الجنود بشكل كبير حسب اعتراف احد أفرادها، والذي وصف وضعهم بأنه كان كارثي، لاسيما وأنها استمرت لمدة 60 ساعة متواصلة[36].

ومما زاد من مأساة قوات الحملة، هبوب عاصفة هوجاء قلعت المراسي وفصمت الحبال ورمت بالسفن الواحدة على الأخرى فهشمتها على صخور الشاطئ[37]. وكانت أولى السفن التي احترقت هي السفن الشراعية، في حين صمدت القوادس زمنا أطول[38]. لكن الجدافين سرعان ما فقدوا القدرة على تحريك المجاديف واستولى الهلع على مَن كان في تلك السفن. ومما زاد الأمر سوءا إنهم كانوا عاجزين عن التخاطب والتفاهم فيما بينهم بسبب انتماءاتهم إلى جنسيات وقوميات مختلفة، فانهزم الإيطاليون في فوضى شديدة، وفر الألمان من دون قتال[39]. لقد اشتركت الظروف الطبيعية في حسم نتيجة المعركة، ويشير صاحب كتاب (غزوات عروج وخير الدين) إلى العناية الإلهية التي أحاطت أهل الجزائر في مواجهة شارل الخامس وجنوده، بقوله:"أن الله سبحانه وتعالى تدارك أهل الجزائر بلطفه الخفي فهاجت الرياح وساقت السحاب أمثال الجبال أمطرت السماء مطرا كالطوفان وهال البحر واشتدت أمواجه وكثر اضطرابه بما لم يعهد مثله فجعلت سفنهم تتكفا يمينا وشمالا"[40] . ويعلق الدكتور شوقي عطا الله الجمل على ذلك، بالقول:"فقد هطلت أمطار غزيرة وثارت الزوابع البحرية والجوية فادت ثورة الطبيعة لتحطم جزء كبير من أسطول العدو وغرق الكثيرون من جنوده"[41]. فيما عزا الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي هزيمة الأسطول المسيحي إلى العناية الإلهية، مشبها إياهم بأصحاب الفيل[42].

لقد كانت الهزيمة منكرة حقا، إذ لم يتمكن جنود الحملة من الوصول إلى سفنهم الأبعد خمسة أيام، ولكن سرعان ما هبت عاصفة أخرى أغرقت العديد من السفن وشتتت البقية في البحر، فلاذ الإمبراطور ومَن بقي معه من الجنود بالفرار إلى بجاية حيث انعدمت الأغذية لدرجة إنهم وصلوا إلى درجة أكل الأعشاب والكلاب والقطط، وأمر شارل الخامس بذبح الخيول التي تبقت مع الحملة من اجل إطعام الجنود[43]، وفي ذات الوقت، حاول الجنود العثمانيين، من الأتراك والعرب، إلى جانب البدو، ملاحقة القوات المنسحبة ونكلوا بها واستولوا على أسلحتها وأمتعتها، وبلغت الخسائر البشرية حوالي عشرين ألف

جندي، إلى جانب الاستيلاء على عدد من المدافع والأسرى والسفن[44]. ويصف مبارك الميلي طبيعة المأساة التي آلت إليها قوات الحملة، حين كتب يقول:" وانتثرت جثث جنود شارل الخامس وبقايا سفنه على طول الشاطئ من دلس إلى شرشال، وبلغت المغانم التي كسبها الجزائريون في ذلك اليوم من الأهمية جعلتها مضرب المثل لمدة طويلة"[45].

لقد كان وقع الهزيمة على الإمبراطور شارل الخامس كبيرة، إذ يشير الكاتب عزيز سامح التر:"لقد شوهد شارلكان ولأول مرة في تاريخه يبكي على الخسائر التي حلت بجيشه وأسطوله"[46]، فقد أصيب بنوبة يأس شديدة، إذ أعتزل على إثرها العالم، وعكف على الصلاة[47]. فهو لم يتعرض طوال حياته لمثل هذه الهزيمة المُرّة، والتي تسببت في فقدان كل ما لديه من سفن ومدافع وعتاد وخيول، ومات من جنوده ما لا يحصى عددهم. وهكذا بدأ انسحاب الأسطول المسيحي من أرض الجزائر في الأول من نوفمبر 1541[48]. وشكلت الهزيمة غصة ونكسة كبيرة في أوربا، وصفها خير الدين بربروس في مذكراته، قائلا:" لقد كان لتلك الهزيمة دوي كبير في شتى أنحاء أوربا حتى غدت غصة في حلوق الصليبين تخنق عبراتهم من شدة التأثر"[49].

لقد كان لتسارع الأحداث التي شهدتها الحملة على الجزائر، إذ لم تستمر الحملة سوى ثلاثة عشر يوما[50]، أثرها في خسارة خير الدين بربروس فرصة، لم تتوفر له فيما بعد إطلاقاً، وهو القضاء المبرم على شارل الخامس وكل القيادات العسكرية بشكل تمام. إذ لو تحقق ذلك، كان من الممكن أن يساهم في بقاء الهيمنة العثمانية البحرية لمدة أطول في غرب البحر المتوسط. وكان خير الدين بربروس يدرك أهمية فرصة مثل هذه، إذ استطاع، بفضل خبرته البحرية الطويلة، من رصد تحركات الإمبراطور شارل الخامس ونيته في شنّ حملة كبيرة لإجتياح الجزائر، وأقترح، منذ جوان عام 1541، تجهيز أسطول حربي قوامه مائة سفينة، تُرسل خمسون منها إلى الساحل الجزائري، بينما تقوم الخمسون الأخرى باعتراض الأسطول الإسباني، بشكل استباقي، قبل وصوله إلى السواحل الجزائرية. لكن هذا المقترح لم يحظ بتأييد رجال البلاط العثماني، ويرجع ذلك إلى، ربما، انعدام الدراية بشؤون البحر على العكس مما كان عليه خير الدين من خبرة في هذا الميدان[51].

على أية حال، ما أن وصلت أنباء الحملة الإسبانية إلى العاصمة اسطنبول، حتى تقرر تكليف خير الدين بربروس بتجهيز أسطول بحري قوي لمواجهة الموقف. ولكن قصر وقت الحملة حال دون ملاقاة خير الدين للحملة الاسبانية[52]. وبعد علمه بنجاة الإمبراطور وفراره إلى بلاده، قرر خير الدين ملاحقته إلى عقر داره[53].

على العموم، في الوقت الذي كانت فيه حملة شارل الخامس تُمنى بهزيمة مُرّة في الجزائر سنة 1541، أصبح في إثرها السلطان في أوج مجده، وتم الاتفاق بينه وبين الملك الفرنسي على مهاجمة شارل الخامس بهجوم فرنسي ــ عثماني مشترك؛ إذ يقوم قسم من الأسطول الفرنسي بمهاجمة السواحل الإسبانية، ويقوم القسم الآخر من الأسطول بتعزيز أسطول السلطان في البحر المتوسط[54].

كان للانتصار العثماني في الجزائر نتائج مهمة في مسيرة الصراع البحري بين العثمانيين والأسبان، يمكن إجمالها بمايلي:

1. أكد تفوق العثمانيين بحريا في منطقة كانت تمثل آخر حلقة تستطيع من خلالها إسبانيا تأمين حدودها البحرية مع العثمانيين[55]. لقد أعطى الانتصار الذي تحقق في الجزائر السلطان العثماني هيبة كبيرة في مواجهة التحالف

الأوربي المسيحي، كما ساهم في إعلاء شان القوى البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط، التي غدت قوة مهابة ومرعبة من جانب الأساطيل البحرية الأوربية. وتظهر المكانة التي كانت تتمتع بها البحرية العثمانية من اهتمام ومتابعة من جانب السلطان ذلك السخاء الذي يغدق به على تطوير قدراتها وإمكانياتها. ويتجلى ذلك في عام 1543، حينما طلب الملك الفرنسي فرانسوا الأول مساعدة السلطان العثماني في مواجهة التهديدات العسكرية على حدودها الشرقية. إذ لم يتردد السلطان في صرف مبلغ مليون دوقة من اجل تهيئة وتسليح الأسطول العثماني، الذي بلغ تعداده 200 سفينة، للتحرك نحو المياه الفرنسية الجنوبية وحمايتها من التهديدات الخارجية. بينما عجز الملك الفرنسي عن تهيئة أكثر من 20 سفينة[56].

2. استثمر العثمانيون الاندحار الذي أصاب شارل الخامس في الجزائر بشكل فعال وسريع، إذ استمرت القوى البحرية العثمانية في مهاجمة السواحل والسفن الاسبانية والمتحالفة معها. وتدخل العمليات البحرية التي قام بها حسن باي، انطلاقا من الجزائر، واحدة من الخيارات التي انتهجتها الدولة العثمانية في فرض هيمنتها في منطقة غرب المتوسط[57].
3. اهتزاز مكانة الأسبان في المدن التي يسيطرون عليها في شمال إفريقيا، وهو الأمر الذي شجع العثمانيين على القيام بالمزيد من الحملات البحرية في شمالي أفريقيا في المواقع التي كانت خاضعة للنفوذ الإسباني. وغدت مدينة الجزائر منطلقا لها، والتي غدت تشكل كابوسا على الأوربيين عموما، والأسبان تحديدا[58]. والأهمية التي أخذت تتمتع بها المدينة يشير اليها صاحب كتاب(غزوات عروج وخيرالدين)، بالقول:"أصبحت الجزائر كالعروس العذراء تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمان الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها وبقى رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة بقدرة العزيز القهار"[59].
4. إن العثمانيين تفرّغوا، بعد هذا الانتصار، إلى منطقة الشرق حيث كان صراعهم محتدما مع الصفويين[60].
5. إنه أسهم في تقويض هيبة الإمبراطور الإسباني في بلاده وفي أراضي الممتلكات التابعة له. كما عمل على تقوية مكانة الفرنسيين والبروتستانت في مواجهته أكثر من أي وقت مضى[61].
6. إن هذا الانتصار، وهو آخر انتصار بحري عثماني كبير خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، أسهم في تأجيل الحروب البحرية مدة عقد آخر من الزمان لم يدخل خلالها الطرفان في مواجهة جديّة[62].
7. شكل حافزا للأندلسيين في طلب مساعدة الدولة العثمانية لإنقاذهم، وهو ما عبروا عنه في الرسالة التي بعثوا بها إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 فبعد الإشارة إلى أوضاعهم ودعوة السلطان العثماني لإنقاذهم أشادوا بالنصر الذي تحقق في الجزائر بالقول:"واتفق رأيهم المعكوس وتدبيرهم المنكوس على قتال الجزائر لئلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحا عاصفا وموج قاصف فجعلهم في سواحل البحر بين أسير وقتيل وما نجا منهم من الغرق إلى قليل" [63].

الهوامش:

[1]. ينظر: إسماعيل احمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الرياض، 1995، ص67-68؛

Daniel Goffman,The Ottoman Empire and Early Modern Europe,New York, 2004,P.145.

[2]. للتفاصيل عن الموضوع، ينظر: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، الجزائر، 2010، ط1، ص 164-166.

[3]. خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الارناؤوط، بيروت، 2002، ط1، ص 59-60.

يشير الكاتب دانيال كوفمان إلى الدور الكبير الذي قام به خير الدين بربروس في تطوير قدرات البحرية العثمانية مما مكنها من قهر القوى البحرية الأوربية، وفرض هيمنتها على منطقة البحر المتوسط لفترة طويلة من الزمن، ينظر:

Daniel Goffman, Op. Cit, P.145.

[4]. حققت فرنسا من وراء تقاربها مع الدولة العثمانية مكاسب كبيرة، تمثلت في التوصل إلى المعاهدة المعروفة باسم(الامتيازات الأجنبية)عام 1536. للتفاصيل ينظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، بيروت، 1981، ط1، 223-230.

[5]. للتفاصيل عن المعركة، ينظر: مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص 186-191.

[6]. Daniel Goffman, Op. Cit,P.147-148.

محمد فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص 234-235.

[7]. أندريه كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، تعريب: محمد الزرفي، تونس، 1991، ص144؛

Daniel Goffman, Op. Cit, P.149 .

[8]. احمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني، القاهرة، 1993، ط2، 96-97.

[10]. Daniel Goffman, Op. Cit, P.149-150.

[11]. كانت السواحل وطرق التجارة الاسبانية المطلة على المتوسط تتعرض لهجمات البحارة العثمانيين، لاسيما الأخوين بربروس، انطلاقا من الجزائر. وكانت هذه الهجمات تثير قلق وغضب الأسبان. ينظر: أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص26.

[12]. اندريه كلو، المرجع السابق، ص .146

13. مؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق: نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1934، ص .127

14. عن استحضارات شارل الخامس لحملة الجزائر:

Stanley-Lane & Kelly, J. D. Jerrold; The Story of Barbary Corsairs, London, 1890, p. 11-13 .

15. يشير عزيز سامح التر إلى كون:"غالبية القادمين في الأسطول قادمين للحصول على مكافآت أعدت لهم، ومما يؤكد هذا وجود أعداد كبيرة من النساء الاسبانيات في هذه الحملة". واعتقد أن تواجد النساء لم يكن من اجل المكافآت، كونهن لم يكن مقاتلات، بقدر ما هو اقتناع واطمئنان شارل الخامس سهولة السيطرة على مدينة الجزائر وجعلها مستوطنة اسبانية بعد طرد سكانها، وما حضور النساء إلا دليل على ذلك لأنهن جئن برفقة الجنود كعوائل. للمقارنة ينظر: عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود على عامر، بيروت، 1989، ط1، ص157.

16. اندريه كلو، المرجع السابق، ص 147. واختلفت المصادر في قوام الحملة، ولكنها تتفق على أنها كانت كبيرة من حيث العدد والعدة؛ انظر على سبيل المثال: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، بيروت، 1980، ط 4، ص 63-64؛ عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود على عامر، بيروت، 1989، ط1، ص.157

17. شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة،1971، ط1، ص .88

18. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، بيروت، 1964، ص 65.

19. اندريه كلو، المرجع السابق، ص 147؛ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م، الجزائر، 1976، ص .281

20. مذكرات خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص .199

21. يقصد خير الدين بربروس.

22. المصدر نفسه، ص 199-.200

23. المصدر نفسه، ص .200

24. روني باسي، حملة ملك إسبانيا على الجزائر، ترجمة عبد الحميد بن هدوقة مجلة الثقافة، العدد 14، السنة 1973، ص 72-75. للتفاصيل عن الإجراءات التي قام بها حسن باي لمواجهة حملة شارل الخامس ينظر: مؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق: نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1934، ص116-117.

25. يشير يلماز اوزتونا إلى انطلاق الحملة هو يوم 20 أكتوبر 1541، بينما يشير كل من احمد توفيق المدني، وديفيد تريفور إلى أن وصول الحملة إلى سواحل مدينة الجزائر في نفس التاريخ أعلاه. بينما يقول عزيز سامح التر أنها وصلت في يوم 19 أكتوبر، للمقارنة ينظر: يلماز اوزتونا، احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 282؛ عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 156؛

Davies, R. Trevor; The Golden Century of Spain 1501- 1621, London, 1961. p. 100.

26. عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 157.

27. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 116.

28. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 65.

29. ينظر:احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 282؛

Davies, R. Trevor, Op.Cit, p. 100.

30. ينظر: المرجع نفسه، ص 283-284.

31. A.Dujarric- Descombes, Letter Inedite De Villeganon sur Lexpedition De Charles- Quint Contre alger, Paris,1895,P.11.

32. مذكرات بربروس، المصدر السابق، ص 200؛

A.Dujarric- Descombes,Op.cit, P.12.

33. المصدر نفسه، ص 201-202؛ احمد توفيق المدني، المرجع السابق، 284؛

Lane-Poole & Kelly, p. 114-115.

34. عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 158.

35. يشير خير الدين بربروس في مذكراته إلى أن عددهم هو ثلاث آلاف جندي، بينما يقول عزيز سامح التر من إنهم كانوا 300 جندي، للمقارنة ينظر: مذكرات خير الدين بربروس، المصدر نفسه، ص 203؛ عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 158.

36. المصدر نفسه، ص 201-202؛ احمد توفيق المدني، المرجع السابق، 284؛

Lane-Poole & Kelly, p. 114-115.

37. A.Dujarric- Descombes, Op. Cit,P. 13.

38. احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 284؛

Lane-Poole & Kelly, p. 116.

39. يذكر ستانلي لين ـــ بول إنه خلال ست ساعات في يوم الخامس والعشرين من تشرين الأول غرقت مائة وخمسون سفينة، ينظر:

Lane-Poole & Kelly, p. 117.

40. اندريه كلو، المرجع السابق، ص 147.

41. المصدر السابق، ص .119

42. المصدر السابق، ص .88

43. عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، 1980، ص .919

44. اندريه كلو، المرجع السابق، ص 148؛

A.Dujarric- Descombes, Op. Cit,P. 15.

45. مذكرات بربروس، المصدر السابق، ص 204-205؛ احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 286.

46. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 67.

47. المرجع السابق، ص .162

48. مذكرات بربروس، المصدر السابق، ص .214

49. احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 295.

50. شكلت الجزائر، بعد هزيمة شارل الخامس في الجزائر، كابوسا على الأوربيين نتيجة تزايد الحملات البحرية على السواحل التابعة للأسبان وحلفائهم. ينظر: عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 167.

51. مذكرات بربروس، المصدر السابق، ص 208.

52. احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 296.

53. المرجع نفسه، ص 296.

54. بدأت جذور هذا التحالف منذ سنة 1525، عندما طلب فرانسوا الأول من السلطان العثماني مساعدة عسكرية بعد الكارثة التي حلت به في معركة بافيا التي وقع فيها أسيرا بيد الإمبراطور شارل الخامس؛ ويرى احد المؤرخين إن سبب ذلك التعاون يعزى إلى انعدام قوة بحرية لدى الفرنسيين، مما دفع فرانسوا الأول إلى التحالف مع العثمانيين، ينظر: احمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 97.

55. اندريه كلو، المرجع السابق، ص 174.

56. مذكرات بربروس، المصدر السابق، ص 214.

57. قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية ... قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت، 2003، ط2، ص 23.

58. عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص

59. المرجع نفسه، ص 167؛ مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 69؛ شوقي عطا الله الجمل، المصدر السابق، ص 88.

60. المصدر السابق، ص 122.

61. خليل اينالجيك، المرجع السابق،ص 62.

62. المرجع نفسه، ص 61-62.

63. كانت معركة ليبانتو هي أول معركة كبيرة تحدث بين الطرفين منذ حملة الجزائر.

64. عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541، مقال منشور في: المجلة التاريخية المغربية، العدد 3، السنة 1975، تونس، ص 46.